إيزرهـــادن

للكاتب الروسي تولستوي

للاستاذ زكي شنوده

انقض إيزرهادن ملك الأشوريين انقضاض الوحش على دولة الملك ليلى ، فنهب فيها الناس ، وخرب منها المدن ، وأطلق في أطلالها ألسنة النار تأكل ماتبقى من معالمها وأخذ كل من فيها أسرى ، وهنالك ذبحهم وألقى ملكهم في غيابة السجن .

وبينما هو مستلق ذات ليلة في فراشه يفكر في أفظع الوسائل لقتل الملك الأسير إذ سمع حفيفاً خفيفاً يقترب منه فرفع عينيه فرأى أمامه شبح رجل طويل القامة أبيض اللحية في عينيه وداعة وسلام يقترب منه ويهمس في مسمعه هل حقا تريد أن تقتل ليلى ؟

فقال الملك : هذا ما أريد فخبرني ربك كيف السبيل؟

فقال الكهل : ولكنه أنت ! !

قال — أنا من ؟

— ليلى

— ويحك هل جننت ؟ إن ليلى هو ليلى وأما أنا فهو أنا !

— وهمت ياصاحبي فأنت وليلى كل لايتجزأ .

— ولكن لا أفهم : فها أنذا مستلق على فراش وثير ، وحولي الجواري والغلمان ، وغداً سوف أجلس مع صحابي على بساط نأكل حوله الآكال ونشرب الأشربة ونتسامر كما فعلنا اليوم وكما فعلنا بالأمس . بينما ليلى هنالك ماثل في سجنه كطائر في قفص ، وغداً يخوزق ، ويعلق من لسانه فيظل يتخبط حتى يأخذ روحه الشيطان .

قال الشيخ : ولكنك لن تسلبه الحياة ! !

الضرورية للحياة . وهي بهذه الحاسة تدرك من مطالبها أكثر مما يدرك الإنسان .

لماذا لا تخزن الشمس ؟

لو كانت الشمس مجموعة عادية من الغازات المحترقة لزالت من عالم الوجود . ولو كانت كية من الفحم المحترق لاستهلكت كيته من قرون مضت . ويعلل العلماء بقاء الشمس إلى الآن بأنها تتكون من غازات مرتفعة الحرارة إلى درجة تمنعها من الإحتراق .

فالاحتراق نوع من التأكسد ونظن عادة أنه يحدث بالحرارة ، ومن المحتمل أنه إذا كانت الحرارة شديدة جداً فان التأكسد يمتنع وهذا ماحدث للشمس فعلا . فدرجة حرارة غازاتها مرتفعة جداً إلى حد يمتنع فيه التأكسد والاحتراق .

ويعرف العلماء الذين يدرسون الشمس أن درجات الحرارة المرتفعة تحلل المركبات الكيميائية وتقسمها لعناصرها الأولية المختلفة ، ولهذا فان الغازات المكونة للشمس هي خليط آلي من العناصر الأولية . ولا يوجد فيها مركبات كيميائية بتاتاً فان الخلط آلي وليس كيميائياً .

ونحن نعرف أن الشمس تفقد حرارتها التي تستفيد منها ، على أن هذه الحرارة تفقد ببطء ينتظر معه أن تعيش عدة بلايين من السنين .

تربية الأسماك

عندما هددت الغواصات الألمانية الشعب الإنجليزي بالجوع كلف معهد الصناعات الكيميائية الامبراطوري السير جون جرام كر والبروفيسور جروس باجراء التجارب لزيادة المحصول القومي من الأسماك . وأفردت للعالمين بحيرة يجريان فيها تجاربهما في إحدى خلجان اسكتلندا .

وبعد عدة محاولات نجحا في تحقيق المطلوب منهما إذ تمكنا من زيادة اخصاب البحيرة بالنترات والفوسفات التي كان يتغذى بها السمك الصغير ، وهو الغذاء الطبيعي للأسماك الكبيرة .

وبهذه الطريقة نمت الأسماك بسرعة غريبة فان حجمها ووزنها زاد في شهر أو شهرين زيادة كبيرة كانت تستلزم ثلاث سنين بطرق التغذية العادية . وكانت النتيجة أن شباك الصيد وجدت في الأسماك كية وافرة فبلغ وزن بعض الأسماك ٢٠ ضعفاً لوزن مثيلاتها في العمر .

فوزي الشوى

— إذن ما رأيك ياشيخي العزيز في الأربعة عشر ألفا من الجنود الذين اقتلعت من حلوقهم الأرواح وصنعت بأجسادهم راية كجبل الهند . فأين هم الآن ؟ لقد قتلتهم وليس ثمة لهم وجود وها أنذا من أحادثك وتحدثني بترهاتك يا شيخ المخرفين .

— ومن يدريك أن لاوجود لهم ؟

— يدريني أنني لأراهم الآن وقد أكلتهم بالأمس جوارح الطير أمام عيني .

— وفي هذا كذلك أنت واهم فما فعلت إلا أن قتلت نفسك .

— بربك ألا تدعني أفهم هذا الذي تهذي به ؟

— أو تريد أن تفهم ؟

— نعم .

— إذن تعال . .

وأشار الشيخ إلى طست فيه ماء وقال للملك اجلس فيه ، فنهض الملك من سريره ، وجلس في الطست . وأمسك الشيخ بقارورة تشف عن سائل ، وقال للملك أحن رأسك فأحناه ، فسكب عليه من ذلك السائل فانتفض ثم شعر بأنه إنسان آخر : ورأى نفسه فجأة متكئا على سرير وثير إلى جانب امرأة كاللؤلؤة ما رآها من قبل بل عرف ساعتئذ أنها زوجته . ونهضت المرأة قائلة له أي ليللى زوجي العزيز ، لقد رأيت أعمالك بالأمس متعددة متعقدة ، أنهكت قواك فرحت مع النوم أكثر من كل يوم ، فضع على منكبك الرداء وهب يامولاي إلى البهو الأعظم حيث الأمراء والحكماء ينتظرون .

فقام إيزرهادن وقد وقر في نفسه أنه ليللى ، وعجب كيف لم يعرف نفسه من قبل ؟ ! ثم تزيا وتمنطق وتهادى في جلالة الملك إلى البهو الأعظم حيث يسوس مع أعوانه شؤون الناس .

حيا الأمراء ملكهم ليللى وقد عنت منهم الوجوه ، ثم جلسوا بأمره واستهل كبير الوزراء الكلام فقال إنه من المستحيل أن تتغاضى المملكة عن تلك الإهانات الوقحة التي مايفتأ يوجهها إليها الملك المفتون الأحمق إيزرهادن ملك الأشوريين وإن لم يكن ثمة بد من القتال فإنها الحرب

ولكن ليللى انتفض ورفض ، وقال إن الأمور تصرف بالسلام لا بالصدام . وأصدر أوامره بأن يبعث من لدنه رسلا يفاوضون الملك الأهوج إيزرهادن وزود الرسل بما يقولون ويفعلون ، ثم بعث بهم على بركة الله .

وبعد أن نظر الملك ماعليه — في شؤون الملك من عمل خرج يقتنص من لفائف الغاب طرائد الوحوش ، فتلك هي صبابته ولذة نفسه منذ كان في أكناف أبيه يافعا ، وما كان أسعده في هذا اليوم إذ صرع بسهمه المراش عجلين من أخمل عجول الأحراج . نظر كذلك إلى هذه البؤرة العرفاء التي جاءت نحوه تتهادى في دلال الإناث وإقبال الأسد ، وعاد الملك بالقنائص طروبا ، وقضى الليل مع ندمائه في قصف ورقص .

وهكذا عاش الملك مقسما بين ضرورات الحكم ومسرات القلب أياما وأسابيع في انتظار عودة الرسل الذين بعث بهم إلى الملك إيزرهادن ، وعاد الرسل بعد شهر ولم تعد معهم أنوفهم ولا آذانهم ، إذ أن الملك ايزرهادن قد أخذها رهينة على أن يقولوا لمليكهم ليللى إن ما حل بهم سيحدث له كذلك إن هو لم يحمل على ظهور المطايا أوساقا من الفضة والذهب والأخشاب الثمينة ويقدمها للملك ايزرهادن ومن خلفها يذهب الملك ليللى بنفسه ويقدم للملك العظيم فروض الولاء

وجمع ليللى أمراءه فتشاوروا ودبروا وقدروا ، وقرروا أن الملك قد أهين ، وبالإجماع أعلنوها حربا على ملك الأشوريين ، وعلى رأس جيش يتقد حمية وحماسة كان الملك ليللى يزحف الى عدوه وقضى سبعة أيام يكابد هو وجيشه مشقة السفر ووعثاء الطريق .

وفي اليوم الثامن تقابل الجيشان في بطن واد مكشوف . ويا أكثر ما روع الملك الباسل ليللى إذ رأى جيش غريمه ينهمر كالسيل من أعلى الجبل ويكتسح الوادي بآلاف مؤلفة فدافع ليللى ببضع مئاته دفاع الأبطال .

ولكنه سرعان ما جرح وحمل أسيراً وذهب جيشه من قتيل وأسير وسيق به وبهم إلى نينوى حيث ألقي الملك في كهف مسوج بالقضبان .

ولم يعان الملك ليللى فى هذا الأسر من آلام الجوع وإيلام الجروح كما عانى من آلام الروح : فها هو ذا ملطخا بالخزى والعار لا حول له ولا قوة ، يكابد عذابه وأوصابه شجاعا صابراً لا شاكيا ولا متذمراً .

اثنتا عشر يوما ينتظر الملك الموت وهو يرى فى كل لحظة خلصاءه وندماءه يساقون إلى الذبح كالخراف ولكنه تجمّل وتحمل وكتم : رأى زوجته التى يحبها كل الحب مغلولة اليدين يسوقها عبدان إلى حيث تلقى مع جوارى إزرهادن فسكن وسكت .

وأخيراً صرصرت السلاسل وفتح باب السجن ، ودخل جنديان ، فأنهضا الملك وكبلاه بالحديد وساقاه إلى ساحة الإعدام ، وخلعوا أثواب الملك وزجروه وزجوه إلى حيث الموت ، وحينئذ صاح الملك : إنه الأجل . لا أستطيع . وفقد الملك شجاعته وبكى ، ووقع الملك على أقدام الجلادين يبكى ويسترحم ، ولكن لا سامع ولا مجيب . وشهروا السيف وأرادوا أن يهووا به على عنقه .

وهنا صاح الملك : هذا لا يمكن . إنه حلم ، ونفض الملك رأسه فعاد كما كان: إزرهادن .

وقال إزرهادن : يا إلهى كم قاسيت من العذاب . وكم طال هذا الكابوس .

فأجاب الشيخ ذو اللحية : كم طال هذا الكابوس ! ؟ إنه لحظة يا صاحبى دونها غفوة العين ... فهل فهمت الآن ؟

فنظر الملك فى رعب ولم يجب .

فقال الشيخ أرأيت أن ليللى هو أنت ، وأن الجنود الذين عذبتهم وقتلتهم ليسوا أحداً غيرك ؟ إنك تظن أيها الملك أن الحياة تجرى فى عروقك وحدك ، ولكنى أريتك أنك بعمل الشر للآخرين إنما عملته لنفسك لأن الآخرين وأنت شىء واحد ، فالحياة واحدة فى الجميع وإنما حياتك جزء من هذه الحياة العامة وصورة منها مصغرة : وإلا فخبرنى هل يمكنك أن تجعل الحياة أسوأ مما هى أو أحسن مما هى ؟ هل يمكنك أن تمدها حتى تطول ، أو تقبضها حتى تقصر؟ ... كلا فما فى استطاعتك أن تحقق الحياة إلا فى نفسك وذلك بأن تحطم الحواجز بين حياة الآخرين وحياتك ، وبأن تنظر إلى الآخرين النظرة التى تنظرها إلى نفسك وتحبهم كما لو كانوا منك . بهذا تزيد نصيبك فى الحياة ، إنك تنظر إلى حياتك كأنها الحياة الوحيدة فى الكون وتريد أن تزيدها بما تأخذ من حياة الآخرين ، وأنا أقول لك إنه بنفس هذا العمل إنما تخطىء فى حق نفسك لأنه مستحيل وفوق قدرتك أن تسلب الحياة التى توجد فى الآخرين . وخطأ أن تظن أن حياة الذين قتلتهم قد اختفت لأنك لا تراها فهى اختفت عن ناظريك فحسب ولكنها لم تختف فى الواقع أبداً ، فالحياة لا تعرف الزمان ولا المكان . حياة لحظة وحياة ألف عام وحياتك أنت وحياة كل الكائنات الكثيرة والمتنوعة فى الوجود ، كل هذا سواء ، وواحد لا يختلف . مستحيل أن تسلب الحياة أو تهبها لأحد . الحياة هى الشىء الوحيد الذى يوجد إلى الأبد ؛ وكل شىء عداها تتخيل أنه موجود وهو وهم باطل .

قال الشيخ هذا واختفى .

وفى الصباح أصدر الملك إزرهادن أمره باطلاق سراح الملك ليللى وإلغاء كل أحكام الإعدام . وفى الثالث استدعى إليه ابنه آشور بانى بال وتنازل له عن الملك بكل قوته وسطوته .

وأما الملك إزرهادن فقد خرج إلى الغابات يتأمل فى كل ما عرفه وطاف فى المدن والعساكر يبشر الناس بأن الحياة واحدة خالدة ، وأن الناس إذ يسيئون للغير لأنفسهم لأن غيرهم وأنفسهم واحد خالد .

زكى شنوده
المحامى

ظهر كتاب

الفاروق عمر

للدكتور محمد حسين هيكل باشا

ثمن النسخة ٤٠٠ ربعمائة مليم
وللبريد ٨٣ مليم

الناشر

مكتبة النهضة المصرية

٩ شارع عدلى باشا — القاهرة
ت ٥١٣٩٤